أصوات من الجبل المقدّس ٦

القدّيس
نموذج الأرثوذكسيّة الحقيقيّ

الأرشمندريت باسيليوس

رئيس دير إيفيرون سابقًا، جبل آثوس

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع م.م.

القدّيس نموذج الأرثوذكسيّة الحقيقيّ

أصوات من الجبل المقدّس ٦

القدّيس
نموذج الأرثوذكسيّة الحقيقيّ

الأرشمندريت باسيليوس

رئيس دير إيفيرون سابقًا، جبل آثوس

تعريب الأب حنانيا حكيمة

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة

للنشر والتوزيع م.م.

أيقونة الغلاف: جداريّة لأديرة الجبل المقدّس وقدّيسيه - الإسقيط الروماني، ١٨٦٦.

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.
جميع الحقوق محفوظة، بيروت ٢٠١٥.

أنجزت مَطبعة الينبوع طباعة هذا الكتيب
في شهر أيلول ٢٠١٥

يدور محور هذا البحث حول القدّيس، النموذج الحقيقيّ في الأرثوذكسيّة.

اتّخذت على عاتقي دراسة هذا الموضوع، ومع ذلك ما زلت أشعر، إلى هذه اللحظة، أنّني لا أملك شيئًا لأقدّمه إلى القارئ، ولكنّي مؤمن بمحبّة والدة الإله الفائقة القداسة وجميع القدّيسين والأخوة المؤمنين. لكن آمل أن أقول شيئًا يمكنه التمهيد لمناقشة مثمرة، وذلك بمحبّة والدة الإله الفائقة القداسة وجميع القدّسين.

عندما نسمع عن القدّيسين، ككهنة وجماعة المؤمنين داخل الكنيسة الأرثوذكسيّة، تتبادر إلى ذهننا بشكل مباشر تلك اللحظة المقدّسة ضمن القدّاس الإلهيّ، التي تسبق الاشتراك في الجسد والدم الإلهيّين، عندما يعلن الكاهن «القدسات للقدّيسين»، ففي تلك اللحظة عينها نشعر بالحيرة والارتباك، نشعر أنّنا لا نستحقّ القداسة، ولهذا السبب نجيب عبر جوقة الترتيل: «قدّوسٌ واحدٌ، ربٌّ واحدٌ، يسوع المسيح لمجد الله الآب. آمين». يشير هذا الإعلان تحديدًا إلى أنّ الربّ هو هذا القدّيس الواحد، هذا الربّ الموجود حيثما نستطيع أن نأمل، وحيث نستطيع أن نقف أمامه، وهو موجود. فندرك أنّ ذلك القدّوس الوحيد هو مصدر كلّ قداسة وصلاح، وأنّه يسوع

المسيح، ابن الله، وأنّ هذا القدّوس هو الله.

في الكنيسة الأرثوذكسيّة الواحدة، الجامعة، المقدّسة، الرسوليّة نؤمن بأنّ الله لا فقط يحبّ، إنّما الله هو المحبّة، هو الحبّ بعينه، الحبّ الذي أسّسه وجود الله، كما يقال، إنّه المحبّة الغزيرة وكما يقول القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ: «بما أنّ عمل التأمّل الروحيّ بحدّ ذاته غير كافٍ للتعبير عن الرغبات الصالحة، لذلك وجب أن يفيض العمل الصالح وينير إلى ما وراء ذلك التأمّل».

ولهذا السبب خلق الله الطغمات السماويّة الملائكيّة أوّلاً ثمّ خلق الجنس البشريّ، «فالصلاح أو ما هو حسن يجب أن يفيض ويتدفّق ويذهب إلى ما وراء ذاته». لم يفعل الله ذلك بدافع من الضرورة لأنّ الله كامل الغبطة، ولأنّ الله محبّة وبفيض محبّته فقط، أراد للخير أن يفيض وأن يزيد. وهكذا ستتكاثر الأهداف وتزداد الغايات السامية ومنافعها، وذلك من أجل خلق جيلٍ جديد، أشخاص جدد قادرين على المشاركة في الغبطة الإلهيّة.

الله محبّة وهو حرّيّة مطلقة بكلّ ما في كلمة «الحرّيّة «من معنى، بحرّيّته أحبّنا وبمحبّته منحنا الحرّيّة.

ولهذا السبب نقول في القدّاس الإلهيّ «بغزارة محبّتك

ورحمتك أخرجت الأشياء من العدم إلى الوجود».

وبعد ذلك خلق الله الإنسان، الخليقة الجديدة وجعله متسلّطًا على كلّ خليقته، وملكًا على تلك الخليقة المعذّبة التي تتحدّث عن مصدر «العذاب» (الله). ربّما فضّل الله هذا العذاب لنا وله، اراد أن يخلقنا خارج نطاق الحرّيّة والحبّ لنكون كالحيوانات، ولو كنّا حيوانات ناطقة، ويكون بذلك أكمل الطريق، طريق المحبّة بعظيم رحمته وتنزّهه عن الخطأ...

ولكن بدلاً من ذلك نفخ الله فينا روحه وأعطانا موهبة مميّزة ولكنّها خطرة، أعطانا الحرّيّة وهي «سيف ذو حدّين». يستطيع الإنسان الآن أن يستجيب لمحبّة الله: بالتواضع والطاعة وتصدير الحبّ كما أفاض الله محبّته علينا، فيستطيع الإنسان أن يصل إلى التألّه بنعمة الله. سيرورة الكمال هذه لا تنتهي أبدًا بما أنّها طريق من الأحزان اختبرها القدّيسون قبلاً.

- ماذا يحدث إذًا؟ يخلق الله الإنسان ويعطيه الحرّيّة، وبعد فترة وجيزة حلّت مأساة الإنسان التاريخيّة. لم يستغلّ جدّنا آدم تلك الموهبة بشكل حسن، كما يوضح لنا القدّيس مكسيموس المعترف بإيجاز قائلاً: تصرّف «آدم» بطيب خاطر وبحماقة، بشكل مناقض للطبيعة (طبيعة الله)، وبهذه الخطوة دخلت الخطيئة. دخل اليأس والمرض إلى وجودنا. قرون وأجيال

تعقب أجيالاً أخرى ويبقى السؤال: ما الذي يحدث؟

هل الله وبكلّ عظمته لا يستطيع أن يخلّص الجنس البشريّ؟! بالحقيقة هو قادر، ولكن بعمليّة خلاصه لنا لا يريد أن يدمّرنا، ولهذا السبب جعل الله هذه الأجيال تتوافد جيلاً بعد جيل.

على الإنسان أن يظهر بعض التعاون، وأن يرجع باختياره إلى الله. فكما يقول الآباء: ليس هناك ما هو خيّر وصالح يمكن أن يتمّم عنوة أو بالقوّة.

يسأل القدّيس يوحنّا فم الذهب في إحدى عظاته: «ما الذي حلّ بيهوذا الإسخريوطيّ؟» يجيب: «رغم قدرة المسيح على إصلاحه إلاّ أنّه لم يرد أن يجعله صالحًا بالقوّة أو أن يربحه بالإكراه».

لهذا السبب نحن ننتظر هذه الأجيال. لا يريد الله أن يربح العالم بالقوّة والإكراه، لقد أعطانا الناموس والقانون، أرسل لنا الأنبياء، وأوصلنا إلى امتلاء الدهر، وملء الزمان هو ولادة والدة الإله الفائقة القداسة، فعندما ولدت الكلّيّة النقاء، العذراء المتواضعة جاءت تلك اللحظة التي انتظرها الله من أجل الخليقة بأكملها.

هذا يعني أنّه بوجود والدة الإله حضرت تلك الإنسانة

العذراء المتواضعة، التي تحبّ، النقيّة والحرّة والتي تعمل بحسب مشيئة الله ولا تتمرّد. تلك العذراء القادرة على أن تخاطب رئيس الملائكة جبرائيل وتتلقّى سلام الملاك: «هوذا أنا أمة للربّ، ليكن لي كقولك» (لوقا ١: ٣٨).

عندما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه الوحيد، مولودًا من امرأة، مولودًا بالناموس ليخلّص الذين هم تحت الناموس لننال التبنّي كأولاد الله، (غلاطية ٤: ٥-٦).

يتمثّل ملء الزمان هذا بوالدة الإله الفائقة القداسة فكما يقول القدّيس نيقولاوس كاباسيلاس:

«عندما خلق الله كلّ شيء ورأى الله أنّ ذلك حسن، فقد كشف عن جمال الخلق بصلاح الفائقة القداسة والكلّيّة الجمال والدة الإله». وكما يرد في علم التراتيل الكنسيّة فإنّ والدة الإله الفائقة الجمال والقداسة (الأجمل في النساء) والتي وصلت إلى النقاوة وعاشت التواضع، وتمكّنت ليس فقط من أن تدرك ما لله، ولكن لتلد الله الإنسان المتجسّد وكلمة الله العلي. «والكلمة أصبح جسدًا» (يوحنّا ١: ٤).

وبينما خالف آدم مشيئة الله والطبيعة طوعًا، جاء ابن الإنسان طوعًا ليعمل مشيئة الله الآب والطبيعة، وأصبح مثالاً عظيمًا للإنسان. المثال الذي يجب أن يكون الإنسان عليه

لأنّه الله الكامل والإنسان الكامل المعصوم عن الخطأ. الله المتجسّد.

نستطيع أن نرى عبر تصرّف المسيح أنّه كان وديعًا ومتواضع القلب (متّى ١١: ٢٩)، وأنّ الناموس قد أعطي لموسى، أمّا الرحمة والنعمة والحقّ فبيسوع المسيح صاروا (يوحنّا ١: ١٨)، وعبر النعمة والحقّ بيسوع المسيح تمّ إدراك خلاصنا. ابن الله أصبح إنسانًا، لم يصبح ناموسًا أو نظريّة أو قانونًا فقد عاش كإنسان مثلنا ولكنّه منزّه عن الخطيئة، عاش ببساطة وبتواضع، أظهر لنا محبّته الفائقة. هو الذي جاء يصنع خيرًا ويشفي جميع المتسلّط عليهم (أعمال الرسل ١٠: ٣٨)، تكلّم لغة البشر التي يفهمها العالم. من أراد خبزًا أعطاه، تلك المرأة التي بكت ورثت لفقدان ابنها أقامه الربّ يسوع لها، والآخرون من أبناء داود الذين فقدوا بصرهم وتوسّلوا رحمة الله أعاد إليهم بصرهم، والمجذوم (الأبرص) المتقرّح بالآلام والذي يعاني العزلة التامّة، أبرأه الله وشفاه من آلامه وتقرّحاته.

تكلّم المسيح لغة الإنسان ولم يتحدّث بلغة غريبة وغير واضحة، أراد أن يتجاوز ذلك.

تكلّم المسيح على مملكته الجديدة، تحدّث عن الخليقة الجديدة التي سترشدها تعاليم جديدة وتقودها بعيدًا عن

التعاليم الأرضيّة، وعبر الكلام على مملكته قال المسيح أشياء لم يفهمها اليهود قطّ.

أشار إلى ذلك القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم بقوله: «ولكن لماذا يا سيّد تتكلّم بهذه الطريقة أمام اليهود حيث إنّهم لا يدركون أبدًا ما تقوله؟ وأجاب الربّ: إنّني أتكلم بهذه الطريقة لأصل إلى غايتي فربّما غموض العظة يلهبهم ويوقظهم ليصلوا إلى الحقيقة والحقّ». بهذا الجواب أفصح الله لنا عمّا علينا إدراكه ويساعدنا على تجاوزه بالتدرّج.

عندما نصل إلى آلام المسيح نبصر مرّة أخرى طول أناة الربّ وصبره علينا. نرى كيف أنّ الله أراد أن يصفح عن تصرّفاتنا، ولهذه الغاية لم يحاسبنا بشكل صارم بل نظر إلينا كضحايا وعبيد للخطيئة، وعندما التفّ حوله حشد من أكثر الجيوش ضعةً وأخذوا يبصقون عليه ويضربونه ويهزأون به، نراه صامتًا لا يفتح فاه بكلمة. وهذا ما يبدو واضحًا في كلمات النبيّ أشعياء: «السيّد الربّ فتح لي أذنًا، وأنا لم أعاند، وإلى الوراء لم أرتدّ فقد بذلت ظهري للضاربين وخدّي للناتفين» (أشعياء ٥٠: ٦). وهنا نكتشف ديناميّة الله العظمى مع المحيط حوله، حيث قدّم الربّ شكل المقاومة المؤثّر والفعّال الذي يصل إلى درجة اللامقاومة، وهذا تجلّي القوّة الأسمى

والأعظم، في عدم الممانعة والمعارضة. نحن لا نطيع ونعارض لأنّنا ضعفاء.

فلنتذكّر عبارة أخرى للنبيّ أشعياء عن المسيح: «وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا» (أشعياء ٥٣: ٣).

كيف علينا أن نحتمل الألم؟ هذا ما يشكّل الأهمّيّة الأسمى التي يريد المسيح أن يعلّمنا إيّاها عبر أمثاله وهو كيف نحتمل الألم.

تألّم المسيح أيضًا من أجلنا، تاركًا لنا مثالاً «كي تتبعوا خطواته» (١بطرس ٢: ٢١). وباتّباع خطواته نصل إلى الجثسمانيّة حيث كان سلوكه سلوك الله الكامل والإنسان الكامل.

علينا أن نقرأ وصف آلام المسيح وعذابه في الجثسمانيّة بكلّ وقار وإجلال، كما لو كنّا نؤدّي صلاة مقدّسة، هناك في الجثسمانيّة أعلن الربّ أفكاره قائلاً: «يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عنّي هذه الكأس» (متّى ٢٦: ٣٩). وكانت نفسه حزينة حتّى الموت والعرق يتصبّب منه كقطرات دم منسكبة على الأرض، وقد توسّل إلى تلاميذه أن يسهروا ويمكثوا معه ولكنّهم لم يفعلوا ذلك. وأخيراً مضى الربّ قائلاً: «يا أبتاه إن لم يكن أن تعبر عنّي هذه الكأس إلاّ أن أشربها فلتكن مشيئتك» (متّى

٢٦: ٤٢) وعندما قال الربّ: «لتكن مشيئتك» تمّ كلّ شيء، تقرّر العذاب والألم وقال لتلاميذه: «قوموا ننطلق من هناك» (يوحنّا ١٩: ٣١).

وفيما هو يتكلّم جاء جمع كثير بسيوفٍ وعصي ليلقوا القبض على يسوع، وكان هناك بطرس الرسول الذي لم يمكث مع الربّ ولم يصلّ مثلما فعل الربّ، ولم يقل كما قال الربّ «لتكن مشيئتك»، بل تصرف كإنسان عاديّ إذ استلّ سيفه وقطع أذن خلقس، فقال له يسوع: «ردّ سيفك إلى مكانه، فإنّ مملكة الله ليست من هذا العالم، فلو كانت مملكة الله من هذا العالم فباستطاعتي الآن أن أطلب إلى أبي أن يقدّم لي أكثر من اثني عشر جيشًا من الملائكة ولكن كيف تكمل الكتب؟ إنّه هكذا ينبغي أن يكون».

هنا يقدّم الربّ مثالاً آخر من الكمال، لدينا نوع جديد من الملوك، وهو بكامل إرادته يظهر أقصى قوّة له عبر ضعفاته وجروحه، مملكة من نوع آخر، حيث لا يوجد أعداء رغم العداوة والخصومة. فهو لا يريد أن يحطّم الأعداء ليبطلهم بل ليبطل العداوة بعينها، ولذلك سمح الله لهم بأن يتغلّبوا على الربّ ليقتلوه، ليعطي الجميع الفرصة الجديدة لنحيا ونلج الحياة الأبديّة.

هذه هي روح الشعب الجديدة، الطريقة الجديدة للحياة.

أيضًا عندما أجاب الربّ اليهود عن هويّته فقال: «أنا هو» (يوحنّا ١٨: ٦)، هذا التأكيد لحضور الربّ الذي أعلن «ليست مشيئتي بل لتكن مشيئتك» جعل كلّ هؤلاء الأشخاص المسلّحين حوله يسقطون أرضًا. والحقيقة أنّ سقوطهم على الأرض كان بركةً بالنسبة إليهم. وبهذه الطريقة نصل إلى آلام المسيح، إلى مقدّمة الحياة، نصل إلى مملكة السماء النازلة على الأرض.

أخذ المسيح مأسورًا ومصلوبًا، ولاحقًا عندما كان المارّة يمرّون ويقولون:

«خلّص آخرين أمّا نفسه فلا يستطيع أن يخلّصها، فإن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به» (متّى ٢٧: ٤٢). لم ينزل الربّ عن الصليب ليؤمن به جميع الشعب. بل سينزل عن خشبة الصليب ميتًا وعبر موته سيتغلّب على الموت، وكما تعترف كنيستنا وتقرّ: لقد قام من بين الأموات قام وأقام البشريّة بأكملها. أو كما يعبّر القدّيس يوحنّا فم الذهب قائلاً: «أقام العالم كلّه بقيامته».

الآن تستطيع عائلة الله أن توجد، وأمّا كلّ الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله (يوحنّا ١: ١٢). بالآلام،

بالقيامة، بالصعود والعنصرة حصلنا على خلق الكنيسة.

وبمعنى آخر لدينا خميرة جديدة «تخمّر العجين كلّه». وحصلنا على ملكوت السموات الموجود بالقوّة في كلّ إنسان، والذي يوجد في داخلنا جميعًا، يجعل كلّ إنسان يتقدّم ويعلو إلى أن يلامس الأبعاد الحقيقيّة والمواهب، التي خلق من أجلها ليصير إلهًا بالنعمة.

وبذلك ندخل شركة القدّيسين، أي ذلك الجنس البشريّ الذي تغذّى روحيًّا من المسيح كما تتغذّى الأغصان من الكرمة، والكلّ يصبح مسيحيًّا بالنعمة الإلهيّة.

والآن ما هي المميّزات والمعايير الأساسيّة للقدّيس؟

في البدء أودّ أن أنوّه بأنّ القدّيس هو من كان للكنيسة الأرثوذكسيّة. أمّا خارج الكنيسة الأرثوذكسيّة فربّما نجد أناسًا جيّدين ولكنّهم ليسوا قدّيسين بالمعنى الحقيقيّ الأرثوذكسيّ، فالقدّيس ليس ذلك الشخص الذي يتحلّى بالفضائل أو ذلك الشخص الذي تعلّم السيطرة على نفسه من طريق الضوابط الحسّيّة والنفسيّة، فالقدّيس هو ذلك الإنسان الذي يشكّل وحدة عضويّة وعلاقة سامية لا تنفصل عن المسيح. حصل شخص على المعموديّة باسم الآب والابن والروح القدس، وتابع حياته بالنسك والزهد، بالمواظبة على الصبر والتحمّل

وارتفع من الندم والتوبة إلى النقاء والطهارة، ومن الطهارة إلى التواضع الكامل. تكلّم القدّيس إسحق السرياني عن التوبة والطهارة والكمال، حيث يقول: «التوبة والندم هما انقطاع طرق الخطيئة الأولى بدون الشعور باليأس والحزن عمّا خسرناه وضاع منّا».

الطهارة هي ذلك القلب المملوء بالشفقة والحنان وتكريسهما لكلّ الخليقة.

وهناك شيء ما آخر علينا أن نوضحه، الطهارة والنقاوة ليستا فقط إدراكنا بأنّنا أحرار أو متحرّرون من هذا الألم والغضب الشديد ولكنّه النتيجة. فإذا تخطّينا التوبة والندم وبلغنا النقاء والطهارة، فهذه الطهارة هي حقيقيّة في المسيح يسوع إذا كان لدينا قلب يحبّ كلّ البشر، وأخيرًا يأتي التألّه الذي يعني التواضع والذي يعني التخلّي عن كلّ الأشياء المحسوسة والملموسة وكلّ إدراكات الفكر والتنزّه عنها وتخطّيها، «أي التخلّي عن المدركات الحسّيّة والملموسة وما يتعلّق بها»[1].

إذًا القدّيسون هم هؤلاء الذين تجاوزوا هذه المراحل جميعها وبلغوا التألّه بالنعمة، ولكن ما هو المعنى الحقيقيّ للتألّه؟ قيل في تقليد المجتمع الغربيّ إنّ النعمة الإلهيّة غير موجودة.

---

[1] القدّيس إسحق السرياني، نسكيّات.

ولكي أكون أمينًا، يغيب الإلماح إلى النعمة بطريقة أو بأخرى عند الأرثوذكس. هذا التعبير سقط سهوًا من التعليم اللاهوتيّ في الجامعات ومن التعليم الشفويّ والعظات. ولكن رغم نسيان ذلك فإنّه مازال موجودًا في أعماقنا. إذًا إنّنا الآن بطريقة أخرى: حديثو الولادة (حديثو الاستنارة ثقافيًّا وروحيًّا) وكلّنا كبشر لدينا خطايا وزلاّت. ولكن هل تدركون ما حصل؟

إنّنا مندهشون ومشدودون إلى بعض التعابير الجريئة الشجاعة التي استخدمها القدّيسون، وقد اتّخذنا هذه التعابير واستخدمناها لبناء أنفسنا التي يعوزها بنسبٍ متفاوتة الثبات والاستقرار والسعي إلى الكمال.

هل ينبغي إذًا ألاّ نتكلّم على التألّه؟! أعتقد أنّه علينا أن نتكلّم عليه، لأنّنا نتكلّم على القدّيسين؟! ربّما يقال التالي: ما فائدة التحدّث إليّ أنا الإنسان البائس حول الرعاة العظماء وهؤلاء القدّيسين؟ ولكنّنا جميعنا تعساء. النقطة الأساسيّة والآية الحقّ هي أنّ القدّيس هو إله متجسّد بالنعمة الإلهيّة. هل لاحظتم ما حصل؟

إنّهم يتواضعون ولا يعتبرون أنفسهم عظماء رغم أنّهم كذلك.

ومن ناحية أخرى، نحن البشر البعيدين كلّ البعد عن

القدّيسين نتظاهر بأنّنا قدّيسون، ولهذا السبب نحن نحقّر الآخرين ونصغّرهم.

القدّيس الحقيقيّ هو حقًّا إنسان عظيم ويكمن برهان عظمته في شركته معنا نحن الضعفاء الذين نوقّر أنفسنا. بناءً على ذلك، إذا غابت القداسة وشحّ التألّه فهذا ليس بسبب عدم وجود القدّيسين الحقيقيّين، ولكن بسبب تصرّفنا كقدّيسين مزيّفين، لاهوتيّين مزيّفين، كواعظين ورهبان مزيّفين.

– ما معنى التألّه إذًا؟ التألّه هو غاية وجود الإنسان ونتيجته، والإنسان لا يملك أيّ معنى آخر لوجوده، غير التألّه.

في زمننا الحاليّ، تكثر المناقشات والأبحاث بين الفلاسفة والمفكّرين حول ما يمكن أن يؤول إليه الإنسان كرجل اقتصاديّ مهمّ، كرجل عصريّ، أو رجل يفوق هذا العصر. ولكن ما الفائدة من كون الإنسان عصريًّا أو يفوق العصريّ عندما ننظر ونرى الموت يترقّبنا وينتظر ليبتلعنا؟

الأمر المهمّ هو أن نرتقي ما بعد الموت (فوق الموت)، هذا هو معنى التألّه، وهذا هو السبب الذي دعا الله إلى خلق الإنسان على صورته ومثاله. هذا هو السبب الذي يعلّل اهتمام الله وعنايته بالإنسان وانتظار عودته تائبًا بعد السقوط. وهذا ما يدعونا في الوقت ذاته إلى أن نكون ممتنّين وشاكرين

بالعرفان لوالدة الإله الفائقة القداسة، ليس فقط من أجل طاعتها لله وحمل ابنه داخل أحشائها، ولكن لإعطائه الوجود بالجسد بولادتها له. تجسّد ابن الله وأصبح ابن الإنسان. واعتبرنا مستحقّين لإعادة جميع الإمكانيّات التي فقدناها، وزوّدنا بما يلزم لنتقدّم نحو الله.

الآن، نحن نعيش، ندور حول مشاكلنا اليوميّة، نتأسّف ونندم، فكما يقول الكتاب المقدّس: ليس أحد بلا خطيئة حتّى ولو قضى يومًا واحدًا في حياته. لنأخذ في الاعتبار مثال جابي الضرائب (زكّا، متّى). لديه خطاياه، حتّى الطفل الصغير لديه حساسيّته. ليتنا نملك حساسيّة ذلك الطفل وانسحاق قلب جابي الضرائب.

باستمرارنا في حياتنا الروحيّة، نناضل، نتوب، نطلب رحمة الله، نتدرّب على الصبر. وأثناء اختبارنا الصبر من طريق النسك والتقشّف والتواضع والمحبّة، شيء ما سيحدث في وقت ما.

كما يقول القدّيس إسحق: «فجأة وبدون معرفة، وبلا أيّ مسبّب خارجيّ، وبشكل غير متوقّع فإنّ شيئًا ما سيتغيّر في داخلك. سيشعّ الفرح الحقيقيّ وتشرق السعادة وسوف تتهلّل».

وبحيرةٍ ودهشةٍ ستخاطب نفسك إنّ ما حدث ليس

من صنعي وقد وهبته، لماذا؟ لأنّ الله عظيم في رحمته وعطائه. وتقول: لكنّني لا أستحقّ هذا، ما أستحقّه بالفعل هو العقاب، وعند ذلك تستطيع أن تدرك السبب الذي وصف به القدّيس إسحق الله بأنّه غير عادلٍ. لماذا الله غير عادل؟

إن كان الله عادلاً، فعليه أن يحرقنا حتّى يصيّرنا رمادًا، هذا ونتذكّر قول الآباء إنّ الله رهيب ولكن ليس بسبب قوّته ولكن بسبب محبّته.

ثمّ تستقرّ في داخلك هذه الحيرة الإلهيّة (الدهش)، هذا الفرح الحقيقيّ، هذه السعادة الحقيقيّة لا تنضب ولا تنتهي لكنّها تنمو وتكبر، وهذا ما عبّر عنه الربّ يسوع: «قال هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين على أن يقبلوه، إنّ من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حيّ» (يوحنّا ٧: ٣٨-٣٩). وهذه التعزية تنمو وتنتشر داخل كيانك، «ترسل إلى كلّ مفاصلك، إلى أحشائك وقلبك»، وتشعر بأنّ ما يحدث لك هو ذاته الفعل المستغرب كما سجّل في حياة القدّيسين:

«الروح تنازل والجسد ارتقى»، الروح تنازل، نعم والجسد بل كلّ الجنس البشريّ ارتقى بتنازله وارتفع. يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس إنّ الله أعطانا الجسد ولذلك «عبر

توجيهنا له تجاه الله ممكن أن يرتقي إلى الروح»، ولكنّنا على العكس عبر توجيه الجسد نحو الأرضيّات فإنّنا سنجعل روحنا روحًا جسدانيّة، لم يقل شهوانيّة أو حيوانيّة، بل قال جسدانيّة. ولذلك بعد جهاد القدّيسين وتقشّفهم وتواضعهم وصبرهم تسلّموا هذه النعمة الإلهيّة، تقبّلوا هذه الرحمة وهم مذهولون بشكل كامل، إنّهم مندهشون من رحمة الله، من محبّة الله وسعة إحسانه وعطائه، يشعرون وكأنّهم لا شيء ويعتبرون أنفسهم الآخرين في الخليقة، ويرون أنّ كلّ الآخرين هم أفضل منهم. إنّهم يحبّون مجّانًا كما أحبّهم الله مجّانًا ويتساءلون: ماذا وجد الله فيّ حتّى أستحقّ محبّته العظمى؟

ولهذا السبب، وبسبب انجذابنا إلى القدّيس نشعر بمحبّته الفائقة لنا، إنّه لا يحدّنا أو يأسرنا، بقربنا منه نجد ذلك الدفء الأبديّ، غير المنتهي، الفسيح، وعند تلك اللحظة نستسلم ونكفّ عن المقاومة، فإنّنا أيضًا بدورنا ننذهل بالقدّيسين كما ينذهل القدّيس واقفًا أمام الله الآب، والقدّيس الأرثوذكسيّ يستحقّ ذلك، وليس استحقاقه بداعي فضائله، ولكن لأنّه «السيّد المسيح نفسه». ولكن (بشكل آخر)، عرفت المسيح نفسه بشخص القدّيس، لأنّ الله وقدّيسيه لهم المجد والعزّة ذاتها، بحسب القدّيس غريغوريوس بالاماس.

يكشف لنا القدّيس بمحبّته سبلاً كثيرة. يجعلنا القدّيس ندرك ذواتنا ونوجّهها إلى كلّ الخليقة، هذا لأنّ سلوكه لا يفتأ يقول لنا: أنظر، إنّك إنسان بائس حسنًا، فإنّني بائس أكثر منك، ولكن عليك ألاّ تنسى أمرًا واحدًا، وهو أنّ الله يحبّنا، الله هو أبونا، وإيماننا يعلن بأنّنا نؤمن بإلهٍ واحدٍ آبٍ ضابط الكلّ، كذلك الصلاة التي علّمنا إيّاها الربّ تبدأ بالكلمات ذاتها: أبانا الذي في السموات، إذًا عليك ألاّ تحزن فأنت ابن الله، أعرف جيّدًا أنّك ضعيف، لأنّني ضعيف مثلك، «إنّنا كإكليريكيّين، رهبانًا وعلمانيّين إخوة في الربّ».

«ألسنا مخلوقين من الطين عينه؟» هذا ما عبّر عنه القدّيس ثيوذوروس الستوديتيّ في خطابه المتعلّق بالصوم الكبير، إنّنا جميعنا بائسون ولكنّنا نملك قوّة واحدة، وهذه القوّة هي أنّ هناك أحدًا ما يحبّنا، هو الله الذي يحبّ كلاًّ منّا محبّة أبويّة شخصيّة وخاصّة وبالدرجة ذاتها من الحبّ، فالله يحبّ العالم كلّه.

لذلك، حتّى إنّ سلكنا طريقًا خاطئًا، نستطيع أن نعود إلى الله، إلى أبينا. فكّرنا في الأمر بهذه الطريقة واختبرنا. هكذا تتغيّر الأشياء، ويدرك الإنسان من هو. يكتشف برضى أنّ الطبيعة وجدت لتعطّي المحبّة وتتقبّلها بما أنّه كائن خليقة الله،

وخليقة الله المحبّة، يتبارك بمحبّة الله فقط عندما يختار من مجد إلى مجد. أن يحبّ الله، ويمجّده ويرفعه. على العكس من ذلك، ترتمي في عبوديّة محبّة الذات المستبدّة عندما تنسى طبيعة الحبّ الفائض خارجًا أبدًا، فأنت تهدم نفسك. يكتب القدّيس ذيونيسيوس الأريوباجيّ في هذا السياق: «إنّ علّة الكون أو سبب وجوده تأتي من فيض العناية الإلهيّة نحوه ويضيف أيضًا: «يقيم الروح القدس في كلّ شيء الفضيلة التي تنشئ طاقة فرحٍ من دون تغيير في طبيعة الأشياء» بكلمات أخرى:» الله محبّةٌ ويخلي ذاته المحبّة أو يفيض نشوةً إلى خارجه وذلك عبر أفعال عنايته الإلهيّة، مقدرته، ومحبّته للبشريّة جمعاء. أعطى الله الإنسان كلّ الإمكانيّات ليستقبل هذا الحبّ، لأن يلتزم بهذا الحبّ، ويصبح إلهًا بالنعمة الإلهيّة، فإذا أبدى الإنسان استعداده ورغبته فإنّه سيتقدّم وينمو «فإنّه سيذهب خارجًا من أرض أبيه وعشيرته» (تكوين ١٢: ١) وليلتقي بذاته الحقّ وتتّحد أبعاد نفسه الحقيقيّة كلّها. ولكن هل على الإنسان أن ينغلق ويتقوقع على ذاته وأنانيّته فيختنق؟ الأنانيّة وحبّ الذات مرض أو اعتلال قاتل، وبحسب قول القدّيس مكسيموس المعترف:» الأنانيّة هي الحبّ غير الواعي وغير المنضبط لكيان الإنسان، وما يعاكسها هو الحبّ وضبط النفس، فالإنسان

المسيطر عليه حبّ الذات تسيطر عليه، وبشكل واضح، كلّ الأهواء والانفعالات». فإذا أدركنا تمامًا أنّ الله ذهب خارج إرادته الذاتيّة وعنايته الإلهيّة، وإذا أدركنا إدراكًا كاملاً أنّ الله محبّة، وقد «أحبّ العالم حتّى بذل ابنه الوحيد كيلا يهلك كلّ من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبديّة» (يوحنّا ٣: ١٦). وإذا توقّفنا عن العيش من أجل ذواتنا وسلكنا من أجل الله الذي مات وقام من أجلنا فنحن سنبدأ بإدراك الحقيقة، وسنصبح أناسًا حقيقيّين وسنفهم قصد الله من خلق الإنسان، وسنكتشف وظيفة وجودنا الأساسيّة والطريق الذي علينا أن نسلكه، لننتقل من الطبيعيّ إلى ما فوق الطبيعيّ، وهذا سينمو عبر ممارسة الفضيلة واختبار الإلهيّات بالنعمة المؤلّهة لنصل إلى نموّ واتّساع في المدارك الروحيّة.

بحضور القدّيس نتعلم اللاهوت الحقيقيّ، ولكن ما نتعلّمه ليس من طريق الكلمات، أو بالأحرى ليس فقط عبر الكلمات، ولكن بشكل خاصّ عبر وجودنا في حضرة القدّيس.

يتحدّث القدّيس يوحنّا الدمشقيّ عن حضور القدّيس، فيقول إنّ القدّيسين وهم أحياء يكونون ممتلئين بنعمة الله. وحتّى بعد موتهم فهذه النعمة لا تفارقهم، لا تفارق أرواحهم

ولا أجسادهم، لا تغادر قبورهم، أو ذخائرهم وأيقوناتهم، ولهذا السبب بالضبط نحن نوقن بأنّ القدّيسين حاضرون حتّى في غيابهم الأرضيّ، وحتّى أثناء مغادرتهم لنا فهم معنا.

عندما نرى قدّيسًا نحن لا نتقبّل ببساطة أيّ شيء عبر الأفكار التي يعبّر عنها أو ما يعطينا إيّاه. الشيء الأهمّ يكمن في أنّ روحه وجسده أصبحا مقدّسين، يجلس على نار المحبّة ملتهبًا بمحبّة الله، ولهذا السبب فهو يعطينا شيئًا مختلفًا تمامًا، شيئًا لا ينضب ولا يفنى، وليستطيع الإنسان تلقّي هذه الموهبة عليه أن يلتزم بالشروط الأساسيّة.

عبر القدّيس نحن نملك القدرة على إدراك الله، ومعرفة ذواتنا، نبدأ باستيعاب أنّ الله هو أبونا الذي يحبّنا ولذلك نستطيع أن نرجع إليه.

ذات مرّة، اجتمع بعض الحجّاج في الجبل المقدّس، وهم جماعة قرويّة بسطاء حيث كانوا يتحسّرون على حالة مجموعة من شبّان تلك القرية، يرثون انقيادهم إلى طريق سيّئ. فهؤلاء الشبّان كانوا يتسكّعون في المقاهي مدمنين على الكحول والمخدّرات، وأثناء حديثهم حول هؤلاء الشبّان، قال أحدهم: «بالتأكيد كلّ هذا هو في منتهى السوء، إنّها الخطيئة، إنّه الشرّ، ولكنّ الأسوأ من ذلك كلّه هو أنّهم لا يؤمنون ولا يعرفون إلى

أين يلتجئون في الأوقات الصعبة». يا لهذا الرجل الأرثوذكسيّ الصالح البسيط الذي يمتلك تلك البصيرة العميقة، بالفعل علينا أن نعرف إلى أين نلتجئ في الظروف واللحظات الصعبة.

فالورود لا تتفتّح في جوّ الشتاء الجليديّ بل في الربيع الدافئ، هو من يعطيها الحياة والتبرعم والتفتّح، والإنسان أيضًا لا يستطيع أن يفتح قلبه في جوّ يشوبه القلق والتهديد، بل في جوّ ملؤه الحبّ حيث يسود جوّ من الثقة. ولا نقصد بالحبّ مجرّد المشاعر، بل هو التضحية.

القدّيسون يحبّون ويوضحون لنا أنّ الله أبونا وأنّه الحبّ الذي يخلي ذاته حقيقةً.

نلاحظ عبر مثل الابن الشاطر، أنّ الله (الآب) وبملء محبّته الفيّاضة، خرج من منزله ليستقبل عودة ابنه الشاطر، وعاد وخرج من منزله ليتوسّل ابنه الأكبر ليدخل ويستقبل أخاه الصغير.

عاد الابن الشاطر، وبعودته أصبح الشخص الأساس واللافت للنظر إليه في الاحتفال، وذلك لإدراكه شيئًا واحدًا، حتّى قبل مغادرته بيته، إذ خاطب والده كأب قائلاً: «أبي، أعطني نصيبي من الميراث». وقام الأب بدوره وقابله بأبوّته وبمحبّته السخيّة، لم يلزمه بإطاعة أوامره، حتّى تلك اللحظة لم

يكن هناك مغزى واضح لتصرّفهما، ولكن رغم كلّ ذلك، هل تجاهل الأب ابنه؟. بل أعطاه الميراث وغادر الابن، ولكنّ محبّة الأب كانت ترافقه أينما حلّ وتجعله يتجاوز الهلاك والموت، الذي دفعه إلى العصيان والذي بدوره كان يقوده، أخيرًا، رجع (تاب) الابن إلى نفسه وأدرك ما حدث وقال: «إنّني ابن غير مستحقّ لأب عظيم، سأعود إلى أبي وأطلب الصفح والعفو، وأقول له: أبي لقد أخطأت أمام السماء وقدّامك، أمام أبٍ مثلك قد وهبني كلّ هذا الحبّ ومثل هذه الحرّيّة، إنّني لا أستحقّ الصلاح والخير» وأصلح فقط للاشيء، وحالما أنهى الابن اعترافه التزم الأب الصمت، فهو يحبّ ببساطة، وفي تلك اللحظة المقدّسة لمراسم الاحتفال المقدّس بالحبّ، كلّ شيء يحدث بصمت، ما فعله الأب هو أنّه وجّه الكلام فقط إلى الخدّام، وأمرهم بأن يعدّوا الفصح العظيم وبأن يذبحوا العجل المسمّن ودخل الابن وشاركهم، وأدرك الابن أنّ خطيئته العظمى تكمن في عدم اعتبار أبيه أبًا.

لم يخاطب الابن أباه بهذه الطريقة قائلاً: أنظر لقد بدّدت ثروتك كلّها، سأعمل وأجمع المال وأعيد نصيبك منه وسنسوّي الأمر في ما بيننا ونحسمه. لكنّ المسألة ليست قضيّة ماليّة ومادّيّة، بل هي مشكلة وجود الجنس البشريّ، ولهذا السبب

نلاحظ كيف أنّ الابن الشاطر يعترف بأنّه غير مستحقّ بأن يدعى ابنًا لأب محبّ وكريم (لوقا ١٥: ١١-٣٢).

أمّا بالنسبة إلى الابن الأكبر فلم تجر الأمور على ما يرام، ونلاحظ أنّه لم يتكلّم لغة الابن المحسوب الأكبر الأوعى، لغة العائلة الواحدة والراسخة، فلم يجد نفسه ابنًا لأبيه ولكنّه يشبه ذلك الموظّف الذي يعمل عند رئيسه، بينما كان على الابن الأكبر أن يخاطب والده بلغة الابن تجاه أبيه. ولهذا السبب نرى أنّ هناك خطأ، فإذا كنّا فعلاً مصنوعين في معمل ما كإنسان آليّ لكنّا استخدمنا اللغة ذاتها.

كأبناء كنيسة واحدة نحن نتكلّم لغة العلاقات الإنسانيّة المشتركة في ما بيننا، ففي الكنيسة هناك أبي السماويّ وأنا الابن غير المستحقّ، ولكنّ الابن الأكبر نظر إلى القضيّة كقضيّة ماديّة وقال:»أنظر، كلّ هذه السنوات التي قضيتها في خدمتك ولم أكن غير طائع بل طائعًا لأوامرك ولم تعطني جديًا حتّى أفرح مع أصدقائي». وهذا يعني أنّي فعلت كلّ شيء حسن وجيّد وقد قابلتني بكلّ ما هو سيّئ وخطأ. فما الذي يحدث الآن؟ ثمّ يتابع انتقاده قائلاً:»ابنك هذا الذي أضاع كلّ ميراثك....» أجاب الأب: «لا ليس ابني، إنّه أخوك هذا الذي كان ضالاً فوجد وكان ميتًا فعاش». هنا

الابن الأكبر هو المغزى، إنّه يعيش في المنزل مع والده ولكن بسبب استخدامه لغة بعيدة كلّ البعد عن اللغة الأرثوذكسيّة، لغة التوبة، غادر تاركًا الاحتفال (العيد) الكبير حيث العجل المسمّن يقدّم ضحيّة. جرت الأمور بطريقة غير متوقّعة.

تظهر الحقيقة، عبر هذا المثل، واضحة جليّة بالنسبة إلينا: الله محبّة، لقد خلق الإنسان بمحبّته الأبديّة وأعطانا القدرة لكي إذا رغبت بملء إرادتك الحرّة أن تستجيب لهذا الحبّ فتستطيع ذلك، فالله لا يستطيع أن يفعل أيّ شيء إلاّ أن يحبّ، هذا هو الله الذي لا يكره، هو فقط يحبّ.

إذا ما قبلنا ذلك الوضع الطبيعيّ والحقيقيّ للحبّ اللامتناهي واللامحدود فإنّنا سنلمس أبوّة الله لنا كما قال للابن الأكبر: «كلّ ما هو لي فهو لك». فلماذا تسأل عن ذلك الجدي؟.

ولكن إذا تحدّثنا بلغة مختلفة عن لغة الكنيسة الأرثوذكسيّة فإنّ محبّة الله ذاتها ستصبح هلاكًا بالنسبة إلينا، إنّها كضوء الشمس فهو عطيّة إلهيّة لبقاء الكائنات الحيّة على قيد الحياة، إنّه عامل جوهريّ للنموّ ولإتمام غاية الخليقة، ولكن للجثث الميتة هو يساعد على التحلّل والتعفّن. والعكس صحيح، فإنّ غياب حرارة الشمس ينهي عمليّة الحياة للكائنات الحيّة

ويحمي الجثث (غير الحيّة) من التحلّل والتعفّن وبمعنى آخر، إنّه يفرض الموت.

الله محبّة، وبفيض رحمته الواسعة خلق كلّ الأشياء من العدم إلى الوجود (وذلك لكي يثمروا ويكثروا لتحقيق غايات نعمته). لقد خلق الله الإنسان على صورته ومثاله. والإنسان يحيا تبعًا لوظيفته الأساسيّة لوجوده فيما إذا استجاب إلى العطيّة الإلهيّة الحرّة لمحبّة الله، وهذا الحبّ هو الخلاص ذاته.

وهذا الحبّ عينه هو الهلاك (الجحيم) بالنسبة إلى هؤلاء المتغرّبين عن محبّة الله الفائقة، عن المحبّة على مثال الله (وهي إخلاء ذات) والذين يغلقون على أنفسهم ويعيشون ضمن سجن محبّة الذات والأنانيّة.

نختبر في حضور القدّيس شيئًا مشابهًا لما تحدّثنا عنه، فالقدّيس لا يشوّش عقولنا بالنظريّات، فقد أصبحت عقولنا مضطربة من كثرة النظريّات والتناقضات، ولكن في شخصيّة القدّيس يتجلّى أمامنا ذلك الإنسان الحقيقيّ الصادق، الصورة الواضحة لله، والشيء المهمّ ليس في ما يقوله ولكن بما ينقله عبر حضوره، يقول الرسل: «لهؤلاء رائحة حياة لحياة ولهؤلاء رائحة موت لموت» (٢ كورنثوس ٢: ١٦). ينقل القدّيس إلينا شيئًا ما، ينقل إلينا نعمة الله التي تعطي الإنسان رحيقًا زكيًّا،

فلهؤلاء الذين يتخاطبون بلغة المودّة، المحبّة والنعمة (كعائلة) وهي لغته الطبيعيّة، تاليًا هي بركة، وللآخرين الذين يتكلّمون لغة الأنانيّة وحبّ الذات هي جحيم وهلاك ولا يمكن أن تكون غير ذلك.

علاوةً على ذلك، كلّ الأنظمة التي تستهلك الإنسان تضمحّل بحضور القدّيس. لأنّنا نغمر كلّيًّا ونحن بكامل وعينا وإدراكنا بحقيقة اهتمام هذا الآخر بنا، إنّه يعطينا قيمةً، عبر مسامحته، مغفرته، اهتمامه وعنايته بنا، وليس لغاية في ذاته فهو لن يستغلّنا، أو يفسدنا أو يجعلنا أدوات عنده.

فمن الملاحظ أنّ كلّ نظام اجتماعيّ، رأسماليًّا كان أو شيوعيًّا، يؤثّر في الإنسان. وذلك بسبب طبيعة الإنسان التي لا تصبر، وفي الوقت عينه لا تحتمل فهو يريد الحصول على كلّ شيء وهذا مستحيل ومتعذّر تنفيذه. فقط الله من خلقنا، من يعرفنا حتّى من قبل أن نولد ومن بعد موتنا قادر على إروائنا، ذلك بأنّ كلّ إنسان منّا يريد كلّ شيء له، إن تكلّمنا بشريًّا فهذا مستحيل، ولكن ضمن الكنيسة كلّ شيء ممكن، «إنّنا نسمع أشياء لم تسمع من قبل ونحتفل بالعجائب الرهيبة».

ولكي تتخلّص من قلق الإنسان واضطرابه، ومن كلّ نظام، إن كان حزبًا أو إيديولوجيا أو حتّى الإيديولوجيا المسيحيّة،

عليك أن تبتر كلّ هذه المسبّبات، بالطريقة التي توصف ب «بروكروستيّة»[٢]. لا توجد طريقة أخرى لأنّ الإنسان لا يحتمل.

ولكنّ القدّيس لا يدمّرنا، لا يستخدمنا لمصلحته، هو يحبّنا ولكن علينا ألاّ نعتقد أنّ محبّته هي مجرّد عاطفة، إنّها شديدة، وشديدة القساوة لدرجة أنّها أشبه بعمليّة جراحيّة تقوم باستئصال أحشائنا، ولكن علينا أن ندرك أنّه ذلك الطبيب الجرّاح وليس الجزّار، فنقول له: إنّك على حقّ في كلّ ما تحوي الكلمة من معنى، إفعل ما تريده، حتّى عندما لا يقوم بأيّ شيء فإنّ الحبّ ينجز عمليّة رهيبة داخلنا، إنّه يعتني بنا، يريد لكلّ شخص منّا أن يخلص، أن يصبح إلهًا بالنعمة، ربّما نتركه، أو لا نعير أهمّيّة هذا الذي يهتمّ بنا، إنّه لا يريد شيئًا منّا ولا يطلب مكافأة أو عرفانًا بالجميل، ربّما هذا هو السبب الذي يجعلنا نشكره طوال حياتنا ولا نريد أن ننفصل عنه.

المكافأة والعرفان بالجميل بالنسبة إليه هما أن نجد ذواتنا، وأن نتطهّر من الخطيئة ونكون مقدّسين وأن نرفع ومن أعماق نفوسنا تسبيحة شكر الله، لا يريد منّا أن نكون مؤيّدين أو

[٢] نسبةً إلى بروكروستس من الميثولوجيا اليونانيّة، هذا كان لصًّا خرافيًّا يمدّ أرجل ضحاياه ويقطعها لكي يجعل طولها منسجمًا مع فراشه، تطلق هذه الصفة على من يميل إلى إحداث التجانس أو الانسجام بوسائل عنيفة (م)

مناصرين «لحزبه» أو أعضاءً في جمعيّته، أو حتّى أن نكون رهبانًا في ديره، إنّه يريد منّا فقط أن نجد طريقنا إلى الربّ يسوع المسيح، وإذا حدث هذا فإنّنا سنكون معًا أينما ذهبنا ومهما مرّت السنين، بذلك تصبح الخليقة كلّها والزمن مقدّسين وجاهزين لنعيش حياةً مختلفة ابتداءً من الآن.

ماذا عن ذلك الإنسان غير المرغوب والذي لا يحتمل؟ أودّ أن أشير إلى أنّه يملك تلك الرغبة المكبوتة ليصبح إلهًا بالنعمة، وداخل الكنيسة نحن في مملكة جديدة، لدينا فكر جديد، منطق وإمكانيّات جديدة وهنا نتذكّر ما قاله الربّ يسوع لتلاميذه: «بعد قليل سأترككم ولكن من أراد أن يكون فيكم عظيمًا فليكن لكم خادمًا ومن أراد أن يكون فيكم أوّلاً فليكن لكم عبدًا، كما أنّ ابن الإنسان لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين». (متّى ٢٠: ٢٦-٢٨).

وفي مكان آخر، قال لليهود: «آباؤكم أكلوا المنّ في البرّيّة وماتوا، أنا هو الخبز الذي نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد». لم يقل إنّه يموت ويقوم ولكن «لن يموت»، هذا الخبز هو القربان المقدّس حيث يكون مجزّأ وغير منقسم ومن يأكل منه لا يفنى إلى الأبد، والروح القدس يوزّع

بدون أيّ عناءٍ ويشارك ويبقى تامًّا[٣]، وبحلول الروح القدس فإنّ الجزء الصغير جدًّا من القربان المقدّس يكون مملوءًا بحضور الربّ يسوع، وعبر مشاركتنا موهبة الروح القدس ونعمته فإنّنا نشترك بملئه وبكماله، هو الذي قلنا عنه إنّه بدون أيّ جهد وموزّع رغم بقائه كاملاً.

بهذه الطريقة يمكن للبشر أن يوجدوا ويخلقوا، «كأنّ لا شيء لنا ونحن نملك كلّ شيء» (٢ كورنثوس ٦: ١٠) وعندها نستطيع أن نستوعب أنّ العطاء هو أعظم غبطة من الأخذ، (أعمال الرسل ٢٠: ٣٥). ليست المسألة في أن تنهب الآخرين وتفترسهم حتّى تعيش أنت، ولكن على العكس تمامًا وكما يرد في القدّاس الإلهيّ ليس «دعني آكلك حتّى أحيا»، وإنّما «خذوا كلوا هذا هو جسدي ... اشربوا هذا هو دمي». عليك أن تمتلئ منه، يجب أن يُطفئ ظمأك، إنّك نفسي الحقيقيّة، إن عشت فسأحيا أيضًا وهذا هو المنطق الجديد: هناك مساكن وغرف للجميع، وهنا علينا ألاّ نخلط بين حشد من الأفراد المستقلّين كلّ شخص بذاته والأشخاص المحبّين بعضهم بعضًا والمشتركين بطريقة متناغمة ومنسجمة.

يدعو القدّيس الإنسان إلى أن يرجع إلى نفسه ويقدّم

[٣] في الروح القدس (القدّيس باسيليوس الكبير).

له الإمكانيّة لفتح قلبه، ليعترف، ويريه الطريق ليعود إلى الآب السماويّ ويقف أمامه معترفًا بخطاياه.

علينا جميعا أن نقف تائبين أمام الآب السماويّ، وإن لم نتب فإنّ معاناتنا ستكون كبيرة «يهوذا الإسخريوطيّ البائس ندم وأعاد الثلاثين من الفضّة إلى رؤساء الكهنة»، ولم يستطع استخدام هذه الفضّة أو أن يستمتع بها، فماذا فعل؟ ارتكب يهوذا الإسخريوطيّ خطأ، فلم يدرك إلى أين يلتجئ، وأخيرًا التجأ إلى أولئك الأشخاص عديمي المحبّة والرحمة، وعند تلك اللحظة الحرجة (وتاليًا الأكثر تقديسًا) في حياته قاموا بإبعاده قائلين: ماذا علينا أنت أبصر، عندئذٍ طرح الفضّة في الهيكل وانصرف ثمّ مضى وشنق نفسه. ولكن حتّى هذا الشنق لم يخلّصه أبدًا.

وفي المقلب الآخر بالمقابلة مع يهوذا الإسخريوطيّ، ماذا فعل الرسول بطرس؟ خرج بطرس إلى خارج وبكى بكاءً مرًّا. فقبل الربّ بكاءه. من أجل ذلك قال الربّ بعد قيامته من بين الأموات للنسوة حاملات الطيب: «أخبروا التلاميذ وبطرس معهم»، وليأت بطرس فقد قبلت دموعه وتوبته أمام الله».

فإذا كان بالإمكان، علينا أن نساعد البشر وذلك بتقديم

الفرصة وإمكانيّة البكاء أمام الربّ الذي أحبّنا وبذل نفسه لأجلنا، أن يبكي بكاءً مرًّا كبطرس الرسول، فالانسحاق العميق واعترافنا بخطايانا بسبب من البكاء كما فعل بطرس، لأنّنا ندرك في أعماقنا أنّنا أبناء مجروحون، مهما تقدّمنا في السنّ ورغم ما ندّعيه من قساوة.

وعندما نلتقي قدّيسًا علينا أن ندرك أنّنا نخفي في داخلنا طفلاً متألّمًا، هو أشبه بجذع الشجرة الذي يبدو خاليًا من الحياة إلى أن تأتي الأمطار وتشرق الشمس، ثمّ ندرك الحياة المخفيّة داخله وهذا ما يفعله القدّيسون تمامًا، إنّهم هؤلاء الأشخاص الذين يحبّون، المتواضعون هؤلاء يزرعون الإمكانيّات التي تسمح بنموّ تلك البذرة الصالحة داخلنا والتي كانت ميتة.

قوة القدّيسين «في الضعف تكمل» (٢ كورنثوس ١٢: ٩)، وهذا ما أرانا إيّاه الربّ يسوع المسيح، أيضًا عندما اضطرّ القدّيس بولس إلى التحدّث عن نفسه، مبتدئًا بالتحدّث عن أعماله، تلك الأعمال التي يفهمها الجميع، ثمّ انتقل إلى رؤياه وتحدّث عن إنسان اختطف قبل أربع عشرة سنة إلى السماء الثالثة، وتحدّث عن هذه الحادثة كأنّه يتحدث عن إنسان آخر، رغم أنّ هذه الحادثة حدثت معه، فقد تمّ اختطافه بنعمة الربّ، وتساءل إن كان باستطاعة الإنسان أن يصل إلى

حالة الاختطاف هذه، ويقول إنّه لا يعلم إن كان في الجسد أم خارج الجسد، الله يعلم، مني بشوكة في الجسد مرسلة من إبليس تضرّع إلى الربّ ليرفعها عنه فأجابه الربّ:

«تكفيك نعمتي لأنّ قوّتي في الضعف تكمل»، ثمّ أعرب عن مفخرته، فقال بكلّ سرور «أفتخر بضعفاتي لكي تحلّ عليّ قوّة المسيح»، فالقوّة العظمى والقوّة الحقيقيّة بالنسبة إلى القدّيس هي في أنّ هناك قوّة تكمل في الضعف. ختم الرسول بولس قائلاً: «لأنّي حينما أكون ضعيفًا حينئذٍ أنا قويّ» (١ كورنثوس ٢: ١-٤).

وهذا بالضبط يبيّن لنا عكس ما يحدث في المسائل والشؤون الدنيويّة، فالقدّيسون هم دائمًا أقوياء ولكنّهم في الوقت عينه في قمّة الضعف، كما لاحظنا ذلك في المسيح يسوع، فقد وسم الربّ يسوع بعلامات الجراح والتقرّحات رغم أنّه كلّيّ القوّة[٤]. فإذا التقينا بشخص قويّ عملاق سنشعر بضعفنا وهشاشتنا أمامه.

عند ذلك فقط سنشعر بالاختلاف، وسوف نهتزّ بعظمة قوّته والتي تظهر قدرته جليّة عبر ضعفه وعدم قدرته على إيذائنا.

---

[٤] خدمة السحر ليوم السبت العظيم «التريودي».

فالقدّيس غير قادر على إيذائنا ولكنّه في الوقت عينه معرّض لهجوم الآخرين وسوف تدرك سريعًا وبشكل واضح أنّ القدّيس محميّ بنعمة الربّ ولا يخشى أيّ تهديد، فقوّة القدّيس في الضعف تكمل، من أجل كتب الرسول بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس الأولى (٢: ١-٤): «لمّا أتيت إليكم أيّها الإخوة، كنت عندكم في ضعف وخوف ورعدة كثيرة وكلامي وكرازتي لم يكونا بكلام الحكمة بل ببرهان الروح». وأودّ أن ألفت النظر إلى أنّ كلام الرسول بولس هذا لأنّه جاء إليهم في ضعفٍ وخوفٍ ورعدةٍ الذي عبّر عنه والذي يجعل في طيّاته القوّة والسلطة، وبمعنى آخر فإنّ الرسول بولس لا يحتاج إلى تلك القوّة الأرضيّة وتلك السلطة الدنيويّة لأنّه يحوي نعمة الله وبرهان الروح، فالسلطة لمثل هؤلاء الذين: «قوّتهم في الضعف تكمل» ليست مجرّد قوّة بشريّة إنّها قوّة الله إنّها رحمة وخلاص للجميع».

هذه هي خصائص الفرح الحقيقيّ الممنوح من ملكوت الله، هذا الفرح المتواصل والذي يتمّ نشره «إلى كلّ العالم»، هذا الفرح الذي ظهر في مثل المرأة التي وجدت فلسها الضائع ودعت كلّ جيرانها لكي يفرحوا معها، إنّه ذلك الفرح الحقيقيّ لذلك الراعي الذي وجد خروفه الضائع ودعا كلّ أصدقائه

ليفرحوا معه، إنّه فرح ذلك الأب الذي ارتكض بعودة ابنه الضال وحضّر له وليمة (عيد/سرّ الشكر) واحتفل مع أهل بيته، بوليمة الشكر والفرح الحقيقيّ الممتدّ إلى العالم أجمع.

قوّة القدّيس هي قوّة الجميع وفرحه هو فرح الجميع، وهذا سبب عدم انغلاق القدّيس على نفسه، بل هو يهب ذاته للآخرين ويقدّم نفسه فداء للآخرين، كما قلنا سابقًا وكما يشهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، على أنّ روح القدّيس، جسده، وذخائره المقدّسة كلّها ممتلئة بنعمة الله، وبه ندرك أنّنا مؤهّلون لسكنى النعمة فينا، وهذه حقيقة أنّ الله قد تجسّد وأصبح إنسانًا وبتجسّده ألّه البشريّة كلّها عبر وجود القدّيسين بذخائرهم المقدّسة وكلماتهم، كما قال القدّيس إغناطيوس المتوشّح بالله: «يحمل كلام القدّيس قوّة أعماله، وصمته معنى كلامه». وهذا نراه في المسيح يسوع، فابن الله نزل وتجسّد من أجلنا حالاً بيننا، كما عبّر عن ذلك القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد: بينما الكلّ رأوه شخصًا عاديًّا نرى هؤلاء الذين قالوا له: لقد تركنا كلّ شيء وتبعناك، قد أدركوا ألوهيّة المسيح، وفي قولهم «تركنا كلّ شيء» يعني ممتلكاتهم، مقتنياتهم، أموالهم ورغباتهم الخاصّة.

فإذا قلنا أيضًا: «ربّي، لتكن مشيئتك، عندها نقتبل قوّة

مختلفة وندرك أنّ المسيح ليس فقط هو ابن للعذراء مريم بل إنّه ابن الله».

لنتوقّف عند مثل المرأة النازفة الدم، فالربّ يسوع وأثناء سيره إلى بيت (يايرس) وحشد من الناس يتدافعه، لمست المرأة نازفة الدم هدب ثوبه، فشعرت بأنّ جسدها أبرئ من المرض. توقّف الله عن السير وقال إنّ هناك شيئًا ما قد حدث، شخصٌ قد لمسني، فقال له تلاميذه: ماذا تعني أنّ شخصًا ما لمسك وأنت تنظر كلّ هذه الجموع الملتفّة حولك»، نعم الجموع تتدافع حولي ولكنّ شخصًا ما قد لمسني بطريقة مختلفة وهذه الطريقة المختلفة مهمّة جدًّا، لقد أحسست بالقوّة التي خرجت منّي (لوقا ٨: ٤٢-٤٦، مرقس ٥: ٢٦، متّى ٩: ٢٠).

يمكن لتلك اللمسة أن تكون سرّيّة، خفيّة، والإنسان يستطيع أن يحصل على ذلك عبر الاتّصال مع الله المتجسّد ومع القدّيس.

وكما ظهر ربّنا إنسانًا عاديًّا مثلنا، كذلك فإنّ القدّيس يحيا حياة الإنسان العاديّ.

هنا وفي هذه الفسحة من الأرض هناك قدّيسون في ما بيننا ولكنّنا لا ندركهم، لماذا؟

لأنّنا لا نتمثّل بالمرأة النازفة الدم، إذًا فماذا علينا أن

نفعل؟ كيف نستطيع التواصل مع القدّيس وأن نستمدّ القوّة منه؟ لقد حصلت المرأة النازفة على تلك القوّة الخفيّة وهذا الاتّحاد العظيم مع الربّ يسوع المسيح وهو على الطريق. هذا الاتّصال والاتّحاد مع الله لم يتأثّر أدنى تأثير بالصخب والضجيج الملتفّ حولهما، ولم تكن هناك إشارة أو دلالة على أنّ شيئًا ما قد حصل، فالمرأة تعرف داخلها جيّدًا وتعرف مرضها جيّدًا والربّ عرف بتلك القوّة التي خرجت منه.

كيف علينا أن نختبر هذا التواصل والاتّصال مع الله؟ علينا أن نختبر أوّلاً وهذا الأهمّ، فيما إذا كنّا قادرين على اختبار الضعفات والضيقات حتّى نتحرّر من عجزنا، من وهمنا ومن خيبات أملنا، فالمرأة النازفة الدم قضت معظم حياتها تنتقل من طبيب إلى آخر ولم تنتفع شيئًا بل صارت إلى حال أردأ، لذلك قالت في قرارة نفسها حسنًا لا توجد طريقة أخرى، لا أريد أن أكلّم الربّ أو أن أدعوه إلى منزلي يكفي أن ألمس هدب ثوبه، وقد فعلت ذلك وأبرئت من دائها.

وأيضًا، علينا وبأيّ حال من الأحوال أن نتحرّر من شعورنا بالفشل التامّ وخيبة الأمل، وأن نتخلّص من الشعور بيأسنا وفي الوقت عينه (عند شعورنا بهذه الضعفات علينا ألاّ نهتز أو نصدم لأنّ هذا هو حدث الفرح الحقيقيّ ويجب ألاّ

نعتبر ما نمرّ به شيئًا مروّعًا، فعلينا أن نكون مرهفي الحسّ بشكلٍ لامتناه مثل طفلٍ صغير.

يحدث ذلك مع الحجّاج إلى الجبل المقدّس (آثوس)، إنه وجع ذلك القلب الوديع لذلك الإنسان الذي يحمل قلب طفل صغير، يطلب أن يتعلّم شيئًا ما، كان مثالاً للنضج والإدراك من أجل دخول ملكوت السماء.

تكمن المأساة في رفضنا حالة المرأة النازفة الدم، التائبة والمتواضعة، حتّى إن كنّا معذّبين بمحن كثيرة ومنهمكينّ.

أتأمّل ما دوّنته هنا:» الإيمان المسيحيّ هو شرط أساس من أجل بلوغ التألّه والقداسة». وكما بيّنت سابقًا نستطيع أن نتكلّم لغة القداسة والتألّه فقط في الكنيسة الأرثوذكسيّة، حيث إنّ الله المتجسّد جاء بالحقيقة ليكون معروفًا، الضابط كلّ شيء على السماء وعلى الأرض، والذي أتمّ عمله البشريّ بطريقة إلهيّة وأكمل عمله السماويّ بطريقة بشريّة.

وعبارة «فقط في الكنيسة الأرثوذكسيّة» يجب ألاّ تؤخذ على محمل التسبّب بالخلاف والشقاق، بل على العكس فهي نعمة من أجل العالم والبشريّة كلّها تزوّدنا بفهم ماهيّة الكنيسة الأرثوذكسيّة.

قلنا إنّ الحبّ ليس ذلك المفهوم العاطفيّ فقط، أو

تلك الكلمات الفارغة، ليس تلك الصيحات عديمة المعنى أو وعودًا، إنّما الحقيقة مثل الحبّ قاسية هي ولكنّها في الوقت عينه هي الرجاء الوحيد للخلاص، هذا كلّه «فقط في الكنيسة الأرثوذكسيّة»، وهذا هو السبب الذي دعا القدّيس غريغوريوس بالاماس إلى أن يقول: «إنّ العقائد الكافرة الأهواء الفاسدة تدخل الإنسان» وبالطريقة عينها، إن لم نحمل الإيمان الحقّ فلن نستطيع أن نبلغ ملء الحياة، التألّه إن لم نؤمن ونعترف بألوهيّة السيّد فلن نبلغ خبرة التألّه بنعمة الله.

في الكنيسة، يمنحنا القدّيسون الثقة وإدراك حقيقة أنّ ربّنا وإلهنا هو إله كامل، لأنّه إن لم يكن الربّ يسوع إلهًا كاملاً ويلبس ثوب الإنسان فإنّنا لن نحصل على الخلاص المرجوّ[5] (ما لم يؤخذ من الطبيعة البشريّة لم يشف)[6]. ولكن بما أنّنا نلنا الخلاص، كما برهن القدّيسون، وأصبحنا آلهة بالنعمة، فهذا يدلّنا على أنّ المسيح هو إله تامّ وإنسان تامّ أيضًا.

وينطبق ذلك بشكل مشابه على والدة الإله التي واجهتها الانتقادات والهرطقات في العصور والأجيال. فكما أوضح القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ والآباء في الكنيسة» إنّ كلّ من

[5] الرسالة ١٠١، القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ.

[6] الرسالة ١٠١، القدّيس غريغوريوس اللاهوتيّ.

لا يقبل العذراء مريم كأمّ لابن الله فهو منفصل عن الله». يشير الفكر اللاهوتيّ هنا إلى الأمّ التي ولدت ابن الله (التي أعطت الحياة بالجسد لله) وبفعلها هذا يتلخّص سرّ التدبير الإلهيّ كلّه، ولذلك أظهرت أمّ الله قدرة الإنسان البشريّة ليس فقط في استقبال الله بل في إعطاء الحياة له، وأمّ الله ليست منفصلة عنّا فهي تشكّل القدوة والمثال الحقيقيّ لنا، إنّها أمّنا.

لم يظهر الربّ يسوع المسيح كإنسان قويّ وذي سلطة قائلاً: «إنّني إله كامل وإنسان كامل وأنت أيّها الإنسان لا تستحقّني»، بل جاء كطفل وديع ومعرّض للانكسار والتجريح، ليساعدنا بطريقة فائقة واستثنائيّة، على طلب مساعدتنا وبالطريقة ذاتها، نرى والدة الإله لا تنفصل عنّا ولكنّها بأمومتها الإلهيّة المحبّة أعطتنا النعمة لتكون الروح الذي يعطي الحياة لله.

يقول القدّيس سمعان اللاهوتيّ الجديد: «عندما نصل إلى هدوء القلب ونقائه، عندها نستطيع أن ندرك الفرح الحقيقيّ داخل قلوبنا». فكما شعرت أمّنا مريم بتكوين الجنين داخل أحشائها عبر ارتكاضه، نحن نستطيع أن ندرك الفرح في الآخر عندما نشعر بحركة الفرح الحقيقيّ داخل قلوبنا، وبهذه الطريقة يستطيع الإنسان أن يصبح «متألّهًا بالنعمة» وهذه هي قوّة

الأسرار التي تؤمن بها الكنيسة الأرثوذكسيّة وتختبرها.

نستطيع أن نتابع ونقول إنّ القدّيسين هم آباؤنا اللاهوتيّون. ولا يعدّ كذلك المفكّرون والمختصّون في اللاهوت النظريّ. تتكرّر العبارة التالية ستّ مرّات في اعتراف الإيمان الأرثوذكسيّ: «القدّيسون الذين يقدّسون شفاههم بالقول ثمّ يقدّسون السامعين أيضًا بالقول»[٧] ولم يذكر بحسب دراسات الآباء المتميّزين التفصيليّة أو بحسب تأمّلات المفكّرين اللاهوتيّين الفلسفيّة المعمّقة ولكن قيل:»بحسب الوحي الإلهيّ اللاهوتيّ للقدّيسين» واللافت للنظر عبر هذه العبارة هي أنّها لم تتحدّث فقط عن لاهوتيّ واحد بل عن لاهوتيّين، ورغم وجود جماعة من اللاهوتيّين وليس لاهوتيّ واحد فقط فليس هناك بلبلة (من بابل)، بل نعمة العنصرة انسكبت على الجميع، كلّ قدّيس يتحرّك بحرّيّة، كلّ قدّيس يعبّر عن نفسه بطريقة خاصّة به، ولكن ليس هناك تشوّش ولا اضطراب، بل على العكس هناك انسجام وتناغم وبخاصّة لأنّ جميع اللاهوتيّين (القدّيسين) قد أوحي لهم وبدورهم استمدّوا الوحي من الله.

يحقّق القدّيسون جميعهم «قمم الفضيلة عبر التواضع ويمارسون الغنى عبر البساطة والفقر». فبعدما يجتازون التجارب

---

[٧] اعتراف الإيمان الأرثوذكسيّ في مجمع الآباء القدّيسين: خدمة أحد الأرثوذكسيّة، كتاب التريودي.

ويملكون هذه الصفات، يدخلون إلى حيث لا اضطراب من قبل الجموع بل يقتحمون الأشخاص بمحبّتهم.

يقول القدّيس قوزما الإيتوليّ إنّ الشرّ يأتي عادةً من المتعلّم أو/و المثقّف، إنّه على حقّ لأنّ المثقّف يأتي من (بابل)، من التشويش، يدور كلّ واحد منهم حول فكره الخاصّ، وكلّ واحد منهم يدحض فكر الآخر ونظريّاته فلا تنتهي هذه العمليّة.

وعلى العكس تمامًا، نستطيع أن نقول إنّ الخير يولد من القدّيسين، لأنّهم أحرار وفي الوقت عينه متّحدون. كيف نستطيع الحصول على الحرّيّة الكاملة (يصف القدّيس غريغوريوس النيصصيّ هذه الحرّيّة بالحرّيّة غير المقهورة» والاتّحاد الكامل؟ وبخاصّة أنّ كلّ شخص منّا يلخّص الكلّ، وفي الوقت عينه كلّ شخص هو كنيسة بشكلٍ مصغّر، وبما أنّ كلّ إنسان هو مخلوق على صورة الله ويستطيع أن يبلغ إلى التألّه، وفي الوقت عينه يقول القدّيس غريغوريوس النيصصيّ:»هناك صورة واحدة من الله ممتدّة إلى كلّ الجنس البشريّ من بدء العالم وحتّى نهاية الدهر». لهذا السبب دعي كلّ الجنس البشريّ بالإنسان الواحد ولذلك نستطيع أن نرى الصورة الواحدة لله في الجنس البشريّ، وفي الوقت عينه كلّ إنسان خلق على

صورة الله ويلخّص كلّ الجنس البشريّ والإنسانيّة بأكملها.

هذا كلّه الذي يتجاوز الطبيعة والفهم اللذين منحا إلى القدّيسين، إلى الجنس البشريّ في الكنيسة الأرثوذكسيّة. هذه هي الحرّيّة التي تفوق دنيا الأرض المحدودة للخليقة والزمن.

لذلك كان القدّيس قوزما الإيتوليّ على حقّ حين قال إنّ الشرّ يمكن أن يأتي من المثقّف لأنّه ينتج مثقّفين فقط، والخير يأتي من القدّيسين لأنّهم يشعّون بالحرّيّة والاتّحاد.

أخيرًا دعونا نذكر بعض الأمور التي تتعلّق بعمل اللاهوتيّ بما يخصّ قدرته كمعلّم ومربّ كنسيّ.

لنأخذ في الاعتبار تلك العلاقة بين الله والإنسان، وأنّ ابن الله جاء إلينا، متبنّيًا كلّ الخليقة البشريّة ليخلّص كلّ البشر. ماذا كان لدى اللاهوتيّين الأرثوذكس ليقولوه لنا؟

يكمن عمله في دراسة الأشياء ونقلها؟ كما أنّ الخلاص تمّ لكلّ الجنس البشريّ، إذًا علينا جميعًا أن نقدّم نفسنا إلى الربّ يسوع المسيح وإلى كلّ إخوتنا، هذه هي الطريقة التي علينا أن نحياها، هكذا نقوم بتطبيق لاهوتنا وقد تحدّث القدّيس بولس عن هذا وعاشه أيضًا:» كإنسان يحبّ حبًّا حقيقيًّا ويبذل نفسه» فقد قال: «لأنّي لست أطلب ما هو لكم بل إيّاكم» (٢ كورنثوس ١٢: ١٤)، وأيضًا تابع قائلاً في رسالته الأولى إلى

أهل تسالونيكي (٢: ٨): «هكذا إذ كنّا حانّين إليكم كنّا نرضى أن نعطيكم لا إنجيل الله فقط بل أنفسنا أيضًا لأنّكم صرتم محبوبين إلينا».

أيجب على اللاهوتيّين أن يدرسوا الكتاب المقدّس والآباء؟ هل على اللاهوتيّ أن يكون ملمًّا بمختلف اتّجاهات الفكر الأرثوذكسيّ وفكر الطوائف الأخرى غير الأرثوذكسيّة؟ نعم فكلّ ذلك مساعد بالنسبة إلى اللاهوتيّين ولكن إذا بقي مكتفيًا بهذا الحدّ فقط في جمع المعلومات فهو لم ينجز شيئًا. يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس: «إذا كنت تفكّر بالله لآلاف المرّات ولم تختبر اللاهوت فإنّك لن تتعلّم شيئًا بالحقيقة». ربّما علينا أن نتساءل هنا: كيف نستطيع ونحن أناس عاديّون أن نختبر اللاهوت؟ ولكنّنا جميعًا بسطاء، والقدّيسون هم البسطاء الحقيقيّون.

أن تكون معلّمًا أو واعظًا في التعليم الدينيّ هو اختيار أكثر إرهاقًا ويحتاج إلى جهد مضنٍ ولكن في الوقت عينه هو شيء عظيم ومبهج. إنّها تجربة عظيمة ونعمة كبيرة وذلك بأنّنا نسلّم كلّ حياتنا حتّى ولو كنّا مخلوقات ضعيفة لنقدّم إلى العالم تلك الرسالة، ألا وهي قيامة الربّ يسوع المسيح من بين الأموات. ربّما تقول: من أنا لأقوم بهذا العمل؟ إنّني

مخلوق بائس، ولكنّ ذلك المخلوق البائس أيضًا يتعطّش إلى تلك القيامة، وانظر ما يحدث: يسمح الله بأن نجتاز العديد من التجارب في حياتنا تمامًا لأنّه يحبّنا، كما يقول القدّيس إسحق السرياني: «التواضع، الذي يعتمد على نعمة الله هو نتاج المعرفة، والمعرفة هي نتيجة العديد من التجارب والمحن والإغراءات»، وإنّنا لمحظوظون في عبورنا بعض المحن والتجارب، فعندما تعاكسنا الحياة ولا تعمل الأمور كما نبتغي ونشتهي، عندما تبدو العلاقات داخل عائلتنا صعبة، وعندما لا يقوم أطفالنا بالأعمال الجيّدة التي نبتغي أن يمارسوها، عندما يضربنا ذلك المرض والوباء المؤدّي إلى الموت ولا ندري ماذا نفعل، عندما لا نستطيع إيجاد الطمأنينة والسلام، عندما لا ندرس، ولا نستطيع حتّى أن نصلّي ونشعر بالضياع الكامل، دعونا لا نفقد الأمل أبدًا، دعونا نقول ببساطة: «إلهي، لتكن مشيئتك» أنا لا أعلم شيئًا، أنت تعرف، أنت تحبّني، فإذا أردت لعائلتي أن تتحطّم فليكن ذلك، إن كانت تلك هي مشيئتك، عندما نقول ذلك ومن كلّ قلبنا، فإنّ الله الذي يحبّ خليقته سيأتي إلينا ويمدّنا بالقوّة، بالنعمة والمعونة، والتي هي خارج نطاق استيعابنا ومقدرتنا وعندها سنعلم ونفهم ماذا يعني أنّ «يونان صرخ من داخل بطن الحوت وخلّصه الربّ» وأنّ «المسيح

قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور». ثمّ عندما نذهب إلى المدرسة بعد ذلك الألم والاضطراب المتعذّر تفسيره، نستطيع أن ندخل إلى الصفّ ونحبّ طلاّبنا كما نحبّ أولادنا وأنفسنا، ونستطيع أن نتأمّل نموّهم إلى أن يصبحوا متقدّمين في السنّ فيموتون ونموت، نعود إلى التراب ولكن نتابع معاينتهم أمام أعين الربّ ونستطيع أن نوجّه كلامنا إلى الأولاد عبر حضورنا «أيّها الأبناء، عليكم أن تتحلّوا بالصبر، فالمسيح قام من بين الأموات».

بالإضافة إلى ذلك وعبر حياتنا، وما نعانيه من محن وشدائد فإنّنا نتحضّر لنعطي هذه الشهادة، ألا وهي أنّ المسيح قام من بين الأموات، وهكذا يواصل اللاهوت الأرثوذكسيّ عمله وفيضه.

هناك قصّة يرويها أحد الشبّان الذي جاء إلى الدير يخبرنا عبرها كيف اهتدى إلى الكنيسة، عندما كان طالبًا في المدرسة. والده ووالدته مطلّقان، فأخذ هو يطالع كتب نيتشه وسارتر، فسيطرا على تفكيره، وأحبّ أن يعطي انطباعًا بأنّه ينكر وجود الله وأنّه شخص عصريّ. وفي المدرسة، طبعًا كانوا يسخرون من مدرّس التعليم الدينيّ، وعندما غادر أستاذ التربية الدينيّة كان البديل عنه امرأة! وفكر التلاميذ بالطرائق التي

سيستخدمونها للسخرية والاستهزاء بها، حضّروا أنفسهم ليلقوا عليها الأسئلة الاستفزازيّة والوقحة. جاء ذلك اليوم ودخلت الصف الممتلئ ببسمات الأطفال المصطنعة، الذين انهمروا بالأسئلة التي حضّروها، بقيت ثابتة ولقّنتهم الدرس المطلوب، وحدث الأمر ذاته في الدرس الثاني والذي يليه وهكذا، تابعت المدرّسة عملها بهدوء وسكينة وبدأ الأطفال يشعرون بالغضب والحيرة، فأخذ هذا الشابّ (الذي التجأ إلى الدير أخيرًا) يتساءل في قرارة نفسه: ماذا يحدث لهذه المعلّمة؟ فإذا رميتها بقذائف فإنّها تتجاوزها من دون أيّ ألم أو حرج، إذًا لا بدّ من أنّها إمّا شبح، أو أنّها تتلقّى قوّة من مكان ما، حتمًا هناك شيء ما يحدث هنا، وبالحقيقة فإنّ تصرّفات الأطفال تغيّرت بشكل كامل، وأصبح ذلك الشابّ يرى في تلك المعلّمة مثالاً الإنسانيّة، واتّخذها كأمٍّ له وأصبح قادرًا على فتح قلبه لها، وكانت تلك الأمّ والمدرّسة هي ذلك الشخص الذي قاده وأرشده إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، والآن أصبح هذا الشابّ يتابع تعليمه الجامعيّ، ويمارس بانتظام حياته الكنسيّة والاعتراف وأصبح على علاقة قويّة تربطه بالآباء القدّيسين.

تمثّل هذه المعلمة في هذه الحياة نموذج الأرثوذكسيّة، إذ أظهرت لطلاّبها ما هو القدّيس وأوضحت طريق الربّ

يسوع وتصرّفه خلال آلامه، وجعلت الطلّاب يستوعبون معنى الكلمات «لن أكون غير طائعٍ بل مطيعًا ولن أكون ناقضًا أبدًا». تحمّلت كلّ شيء، وسمحت للتلاميذ بأن يسخروا منها وكانت تملك تلك القوّة لتغفل ذلك، وبعد كلّ هذه السخرية والاستهزاء أصبح التلاميذ كلّهم أولادها وأرشدتهم إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، إلى المسيح، إلى والدة الإله وجميع القدّيسين وبهذه الطريقة مكّنتهم من قبول الخلاص.

دعونا لا ننسى أيضًا ما حدث أيضًا في حياة أحد القدّيسين العظماء، وهو القدّيس أنطونيوس الكبير «فعندما تساءل القدّيس أنطونيوس إلى أيّ مستوى من الكمال بلغه؟ أرسل إليه صانع الأحذية، هذا الحذّاء الذي بلغ في عيني الله درجة الكمال ذاتها التي بلغها القدّيس أنطونيوس الكبير، ونستطيع القول إنّ هذا الحذّاء وصل إلى درجة عليا لأنّه لم يكن يدعى باسم كالقدّيس أنطونيوس ولكنّه كان مجهول الاسم واللقب، وأصبح بذلك مشاركًا «الذي لا يحدّه اسم».

المغزى هو أنّ هناك الكثير من هؤلاء الحذّائين بيننا، والمعلّمة التي روينا قصّتها هي واحدة منهم وهناك العديد من الآباء القدّيسين، رجال ونساء والكثير من اللاهوتيّين العظماء.

هؤلاء اللاهوتيّون هم الذين يمتلكون قوّة داخلهم

ليشهدوا بالطريقة ذاتها التي اعتمدها المسيح عندما قال: «لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته» (متّى ١٢: ١٩) وما زال هو وحده الذي يخلّص العالم بأكمله».

كخاتمة، نستطيع أن نقول مرّة أخرى إنّ قوّة القدّيس الأرثوذكسيّ لا يمكن إيجادها في فضائله وعاداته الجيّدة، ولكن في حقيقة أنّ السيّد المسيح نفسه يحيا داخله، وبشكل مشابه فإنّ قوّتنا ليست مستمدّة في عديدنا كألفي شخص أو مئتي ألف شخص جنبًا إلى جنب، بل قوّتنا كمجتمعين مستمدّة من اسم الربّ يسوع المسيح لأنّنا جميعًا متّحدون باسم الربّ يسوع المسيح، ونشكّل بذلك الجزء الصغير من الخميرة، خميرة ملكوت السموات، تحمل داخلها حيويّةً لا تنضب ولا تخاف شيئًا.

في أحد اللقاءات قال لي أحد الطلبة: «هذا كلّه جيّد ولكنّنا في عالم يواجه خطر الأسلحة النوويّة والنكبات والكوارث التي تضربنا بعنف في كلّ مكان من هذا العالم». أذكر بعد أن سمعت هذا الكلام، أنّني ذهبت إلى الجبل المقدّس، لأنّه حان زمن الأسبوع العظيم، وإن جاز التعبير «كارثة» الفصح، وهذا يجعلك تقول إنّ من اجتاز هذه الكارثة لن يخشى شيئًا. فهناك حتمًا وراء نكبة تشرنوبل ومثيلاتها ما يقدّس الإنسانيّة

كلّها وكلّ الإنسان جسدًا وروحًا. وما هذا الشيء سوى تلك الخميرة الصغيرة لملكوت السموات والموجودة في كلّ قدّيس بشكل فرديّ، وفي كلّ القدّيسين مجتمعين ونحن البشر المجتمعين هنا لنا نصيبنا من هذه الخميرة.

ورغم ضعفنا علينا أن نفتخر بأنّ هناك من هو القويّ، من يحبّنا ويحبّ العالم أجمع وهذا ما سيمكّننا من متابعة المسيرة. آمين.